النظام الاقطاعي

في عهد الرعامسة

في كتابي « لمحات من الدراسات المصرية القديمة »[1] الذي تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق المعظم بأن شرّفه بحسن القبول ، كما أبلغ ذلك حضرة صاحب الدولة ابراهيم باشا عبد الهادي رئيس الديوان الملكي إذ ذاك الى وزارة المعارف ، ذكرت أن ثمة نظاماً اقطاعيًّا كان يسود في عهد الملك ايخ — ان — آتون حتى السنة السادسة من حكمه ، وقلت إن هذا النظام يمكن تسميته بإقطاعيات المعابد لأنه لا يقوم على نفوذ أمراء المقاطعات المدنيين ، وإنما يقوم على نفوذ أمراء المعابد الدينيين . إلاّ أن الملك الشاب ايخ — ان — آتون ، لم يستسغ هذا النظام فسرعان ما ثار ثورته المعروفة في السنة السادسة من حكمه في سبيل التخلاص من أولئك الكهنة الأمراء ومن نفوذهم ، بل ومن معبودهم التي كانوا يتخذونها ذريعة لتقوية هذا النفوذ فألغى هذا النظام بجبروته وقوة بطشه[2] .

وقلت كذلك في البحث المشار إليه إن هذه الظاهرة لم تكن قاصرة على عهد الملك ايخ — ان — آتون بل نجد لها نظيراً في كثير من العهود الفرعونية الأخرى حيث أتيح للملوك الأقوياء الذين كانوا على بينة من نوايا هؤلاء الكهنة أن يقضوا على هذه الظاهرة بتركيز القوة كلها في يدهم والتنكيل بكل من تحدثه نفسه باستغلال تسامح الملوك

* * *

وفي هذا البحث الجديد وضحت بعض الظروف التي استغلّ فيها الكهنة على عهد

---

(١) الكتاب الذي جعل (للثقافة) هديته السنوية الى مشتركيه الكرام في عام ١٩٤٥ .

(٢) الثقافة عدد أبريل ١٩٤٥ .

الرعامسة تسامح ملوكهم فجعلوا لأنفسهم مناطق نفوذ في مختلف الأقاليم متذرعين بما منحه الملوك في بادىء الأمر من الامتيازات لمعابد الآلهة المختلفة اعترافاً بجميل هذه الآلهة على ما ناله ملوك الرعامسة من انتصارات فيما كانوا يخوضونه من حروب أو توفيق فيما كانوا يرسلونه من بعثات.

فالواقع أن الرأي السائد بين علماء الآثار والتاريخ في مؤلفاتهم حتى اليوم أنه لم يكن للكهنة في عهد الرعامسة أي نظام اقطاعي، في حين أن الحقيقة أن ملوك هذا العهد كانوا يضعون ثقتهم في كهنة معابد الآلهة المختلفة في الأقاليم المختلفة، مما أدى بهؤلاء الكهنة الى استغلال هذه الثقة استغلالاً جعل لهم كثيراً من النفوذ في الأقاليم التي يباشرون وظائفهم الدينية فيها، ولا سيما أن الظروف ساعدت بعضاً منهم على الاحتفاظ بهذا النفوذ زمناً طويلاً كما حدث لأحد كهنة معبد منف اذ استمرت سلالته تشرف على معبد بتاح وأملاكه طوال عهد الرعامسة أي ما يقرب من ثلاثمائة سنة متضمنين خلال كل هذه المدة بما يجود به الملوك المتعاقبون من هبات وأملاك لإلهه معبدهم حتى امتد نفوذهم في أواخر أيام الرعامسة — أي أواخر عهد الوحدة الثالثة — الى مدى بعيد.

هذا عن الإله بتاح بمنف. أما عن كهنة الإله آمون فنلاحظ في عهد رمسيس الرابع أن كبير كهنة آمون المدعو نسي — آمون كان قد ورث منصب رئيس كهنة آمون عن والده المدعو رمسيس — تحت تموله هذا المنصب بعد وفاته كذلك أخوه المدعو آمون — حوتب. في عهد الملك رمسيس التاسع مما يدلنا على أن أسرة هذا الكاهن تولت منصب رئاسة الكهنة زمناً طويلاً جداً يقابل عهد ستة ملوك من الرعامسة، فاذا لاحظنا أن كلاً من هؤلاء الملوك كان بمجرد اعتلائه عرش مصر يجود بهبات وأملاك كثيرة لمعبد الإله آمون وضح لنا مقدار ما وصلت إليه أملاك تلك الأسرة من كهنة هذا المعبد وما بلغته من ثراء على أيدي ملوك الرعامسة وما وصلت إليه بالتالي من نفوذ على أملاكها.

أما عن كهنة الإله رع بعين شمس فلدينا قطعة أثرية بمتحف كوبنهاجن يتضح للمطلع عليها أن هؤلاء الكهنة كانوا يتوارثون رئاسة المعبد وأملاكه إبناً عن أب وظلت هذه حالهم مدة طويلة جداً لم ينقطع فيها نفوذهم على معبدهم وما يتبعه من أملاك.

وعلى الجملة فقد كان كهنة كل معبد من معابد الآلهة المختلفة يتوارثون مناصبهم الدينية وينتفعون بما يهبه لهم الملوك من أملاك ولا سيما أن المعابد وما تمتلك من أرض وحيوان كانت معفاة من الضرائب وإنه كان لهذه المعابد بيوت خاصة للذهب والفضة أي أن ميزانيتها كانت منفصلة عن ميزانية الدولة .

إلا أن تسامح هؤلاء الملوك مع الكهنة جعلهم يطمحون الى أكثر من نفوذهم الديني بالتدخل تدريجاً في المسائل المدنية البحتة حتى أصبح بعضهم في وقت ما يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية فنجد مثلاً أن رئيس كهنة الإلـه ست المدعو سيتي قد جمع بين الوزارة ورئاسة كهنة الإلـه ست في عصر الملك رمسيس الثاني .

بل لم يقف طموح الرؤساء الدينيين عند هذا الحد ، وإنما اتخذوا لأنفسهم لقب أمير أو بالمصرية القديمة ربعتي حاتي عا فكانوا بذلك يتشبهون بحكام المقاطعات تشبهاً مع ما نالوه من نفوذ مشابه لنفوذ هؤلاء الحكام .

ومثال ذلك المدعو رمسيس ثخت كبير كهنة آمون فإننا نجد اسمه منعوتاً بلقب الامارة وكذلك ابنه آمون حوتب نجد اسمه منعوتاً أيضاً بلقب الامارة .

وتبعاً لهذا التدرج في النفوذ أصبح لكل من الكهنة بوليه الخاص .

ومن ذلك نرى أن كل أركان النظام الإقطاعي قد توافرت لهؤلاء الكهنة إذ تعددت مناطق نفوذهم تبعاً لتعدد مناطق نفوذ الآلهة في الأقاليم المختلفة فنرى الإله بتاح في منف والإلـه رع في عين شمس والإلـه آمون في طيبة والإلـه أمنوبع رع في بر رمسيس (تانس) والإلـه تحوت في الأشمونين والإلـه أزوريس في أبيدوس والإلـه خنوم في الأقنتين (١) . وهكذا كما أن عنصر التوارث المعروف في النظام الاقطاعي قد توافر

(١) في النصوص التي وصلت إلينا حتى اليوم من عصر الوحدة الاول والثانية نجد أن كلمة « تبو » كانت تعتبر اسماً لجزيرة الفنتين وكانت تعتبر في نفس الوقت اسماً لمدينة اسوان . غير أننا نلاحظ أنه بإبتداء عصر الوحدة الثالثة اقتصر استعمال هذه الكلمة على تسمية جزيرة الفنتين ، أما اسوان فقد بدأ المصريون القدماء يطلقون عليها اسم « سونو » التي اشتق منها الاسم الحالي « اسوان » لهذه المدينة فيما بعد . والرأي السائد في تفسير كلمة « سونو » ان معناها « سوق » ولكن الحقيقة أن معناها قد يكون كذلك ولكن يصح أيضاً أن نفهم أنهم كانوا يقصدون بها « معدن » وتأمل هذه الفكرة نتيجة عثورنا بجزيرة الفنتين هذا العام أن توفي هذه النظرية حقها من الوجهة التاريخية والاثرية .

للكهنة فكان منصب الرئيس الديني يتوارثه الأبناء والأحفاد على مر السنين . ثم توافر لهم أخيراً صفتا الامارة واستقلال ميزانيتهم عن ميزانية الدولة ، مما يجعلنا نجزم بأن النظام

« الملك رمسيس التاسع يقلد رئيس كهنة آمون قلادة »

الاقطاعي بأركانه المعروفة إنما ينطبق على عهد الرعامسة مع فارق فني بسيط وهو أن هذا النوع الجديد من النظام الإقطاعي كان لأمراء المعابد بدلاً من أمراء المقاطعات المدنيين

وان هذه الصورة الجديدة من النظام الإقطاعي قد أحلّت المعبد وممتلكاته محل المقاطعة ومشتملاتها وأحلت الأمراء الدينيين (أي رجال الدين) محل الأمراء المدنيين .

وأن الكهنة ما كانوا يصلون الى ما يبلغونه من نفوذ إلاّ تحت ستار الدين واعتماداً على ما كانت تنطوي عليه قلوب الملوك من عقيدة دينية واحترام لرجال الدين حتى أننا لنجد أنه في عهد الملك رمسيس التاسع قد عمد كبير كهنة الإله آمون الى أن يرسم نفسه على جدران معبد آمون بالكرنك مساوياً في حجم صورته لصورة الملك نفسه . وهو الأمر الذي لم يحدث في تاريخ مصر القديمة كلها إلاّ في هذه الحالة وحدها .

وهي الدليل القاطع على ما كان ينطوي عليه قلب هذا الملك من ديمقراطية حقة وتسامح كما أنها الدليل على مقدار سوء نية هذا الكاهن إذ استغلّ عطف الملك عليه استغلالاً غير لائق. ففي الوقت الذي يقلده فيه الملك القلادة الدالة على عطفه عليه ورضاه عنه نجده يرسم نفسه في نفس حجم الملك محاولاً بذلك استغلال ما أعطاه الملك من نفوذ.

وليس معنى الإقطاعية التي سادت في عهد الرعامسة أنه كان لها أي تأثير على نفوذ الملوك في ذلك العهد لأننا على العكس إنما نلمس في ملوك ذلك العهد قوة وسطوة كبيرين حتى ان عهدهم إنما يدخل في عصر وحدة مصر الثالثة كما أشرت الى ذلك في كتابي « لمحات من الدراسات المصرية القديمة » إذ قلت إن هذا العصر قد بدأ على يد بطل حرب الاستقلال الملك أحمس الأول [1] واستمرّ حتى عهد رمسيس التاسع وهو صاحب الصورة المنشورة في البحث الحالي والتي أشرنا الى أن كبير الكهنة المدعو آمون حوتب رسم لنفسه فيها يتقبل القلادة الملكية. وقد قلت عن مزايا هذا العصر بما فيه عصر الرعامسة إنه يمتاز بازدهار في السياسة الداخلية والخارجية وبالحضارة ووحدة وادي النيل ، وقد بلغت قوة الملوك في هذا العصر حداً أصبحوا معه مسيطرين في نفس الوقت على النظام المالي والقضائي والإداري مما دفعني الى أن أفرد لبحثه من هذه الوجهة كتاباً خاصاً بعنوان « سلطة

(١) راجع ملخص رسالتي للدكتوراه Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten

الملك وعلاقته بالوزير في عهد الرعامسة » [1] باللغة الالمانية وأجتهد حالياً أن أخرجه أولاً باللغة العربية يشجعني على ذلك عطف مولاي حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم نصير العلم وحامي رجاله .

فلم يكن إذن من أثر الحياة الاقطاعية التي سادت في عصر الرعامسة المساس بسلطة الملوك وإنما كان من نتيجتها أنه حينما توفي آخر ملوك الرعامسة ظهر ما ينطوي عليه الكهنة من مكر وكيد وسوء نية فتنازعوا السلطة بينهم مما أدى الى انقسام البلاد الى قسمين أو بالأحرى الى دولتين . إحداها جنوبية عاصمتها مدينة طيبة ، وأخرى شمالية عاصمتها مدينة تانيس .

وكان هذا الانقسام المؤلم في مصر هو النتيجة الطبيعية لتساهل الملوك في هذا العصر مع رجال الدين ، مما أدى الى أن تقع مصر فريسة للفوضى الداخلية وللخطر الخارجي ، حتى قام الملك ابسمتيك الأول وهو الذي سميته في كتاب « لمحات من الدراسات المصرية القديمة » مؤسس عهد وحدة مصر الرابعة فأخضع المتمردين من الكهنة وأعاد الى مصر وحدتها وقوتها وقبض على أزمة الحكم في بلاده بيد من حديد [2] .

وعلى ذلك ففي مصر التي تكونت فيها أول حكومة ملكية يلتف حول عرش مليكها شعب واحد موحد الصفوف يؤلف بين قلوب أفراده حب الوطن والولاء للجالس على العرش ، لم يكن من الممكن أن يمس أحد هذا الولاء دون أن تدور الدوائر عليه ، ولاسيما وأننا نجد في عهد الرعامسة [3] أن موظفي الدولة كما جاء في النصوص المصرية القديمة كانوا يشبهون عطف الملك عليهم بعطف الوالدين إذ يقولون : « إن الملك هو بمثابة الأب والأم لكل مواطن صالح »

دكتور بالفور بيب

مدير المتاحف الاقليمية بمصلحة الآثار المصرية

---

(١) الكتاب الذي أشار اليه الاستاذان شارف وزيدل في كتابهما : Die Rechtsgeschichte des alten Aegypten

(٢) أهم مراجع هذا البحث منشورة في مجلة مصلحة الآثار المصرية آخر جزء لسنة ١٩٤٨

(٣) سأفرد لبحث « الملك ارتيس الاول الجبرية والنبوية في عهد الرعامسة » كتاباً آخر